جان بول سارتر ومواقفه

الادراك والخيال

ليس بين كتاب فرنسا اليوم من بلغت شهرته مبلغ شهرة سارتر . وليس هناك من حديث يدور عن كتّاب اليوم فى الصالونات والأندية العامة أو الخاصة بل فى مركبات سكك الحديد إلا تناول ذكر سارتر ؛ فيقول أحدهم : ألم تقرأ كتاب سارتر الأخير ؟ وما رأيك فى مقال « الفيجارو » عنه ؟ ويقول آخر فى حسرة : آه ! لم تتح لى قراءة سارتر إذ عند ما سمعت به ورغبت فى شراء مؤلفاته وجدتها كلها قد نفدت ، وهل من يعيرنى نسخة من « الحائط » ؟ أو « الوجود والعدم » ؟ أو « الذباب » ؟ .

من هو سارتر ؟ وما سر هذه الضجة حوله ؟ يجب ألا يخيل إلينا أن قراءه يعدّونه سيداً من سادة الأدب ، ورجلهم ، معلما لذوقهم وانموذجا لفنهم ، أو لأسلوبهم ، أو لما يحبون أن يكون عليه الأسلوب الفرنسى . هذا كان ولعله لا يزال شأن أندريه جيد و پول ڤاليرى .

ولا يدّعى سارتر لنفسه شيئاً من هذا ، ونجده يقرر أن أحداً من الناس لا يستطيع أن يسمى نفسه سيداً أو معلماً فى الأدب ، ويسخر من هؤلاء الذين يبحثون عن كاتب هو السيد أو المعلم ، وعن كِتاب هو الكِتاب المثالى أو القاعدة ، ويرى أن مثل هذه الدعوى لا تصح إلا بعد أن يكون قد مرّ قرن أو قرون على الكتّاب وكتبهم .

وليس هناك رجل أبعد من سارتر عن الجماهير . وهو يعتقد قبل كل شىء أنه كمفكر يجب أن يعيش وحده منفرداً منعزلا : المفكر يفكر فى طبيعته كفرد وفى مصيره وهو يعيش ويموت وحيداً . ولكن سارتر رجل النقائض ،

إذ نراه فى الظاهر يغشى الأندية بل يكتب فى الأندية ، بل لا يكاد يكتب إلا فى الأندية . وعند ما يلقى محاضرة يختار مكاناً معدًّا للمجتمعات العامة والسياسية بنوع خاص ، ومكاناً يسع جمهوراً كبيراً .

لا عجب إذن أن يكون موضوع حديث ومناقشة . فهو يعمل ما فى وسعه على إبعاد الناس من حوله ، ويعمل ما فى قدرته على جمع الناس من حوله ، ولكنه سواء جمع الناس حوله أو أبعدهم ، فهو بين همس الناس وضوضائهم ، يعمل ما فى وسعه على أن يحقق شخصيته ، شخصية قوية فريدة .

لست أعرف شيئاً عن صباه وشبابه الأول . أعرف فقط أنه من أسرة وسطى أو من « البورچوازيه » الفرنسية — وهو من أشد نقاد البورچوازيه وأعدائها — كما أن زوجه سيمون دى بوڤوار من أسرة عريقة فى البورچوازيه ، ولو أنها تكره البورچوازيه وقيمها ، والأرستقراطية وتقاليدها .

لا أدرى سنه بالضبط ، ولكنى لا أظنه يتجاوز الأربعين . وسارتر دميم الخلقة ، قصير القامة ، بدين قوى ، يكاد رأسه يلتصق بكتفيه ، وشعره لا لون له ، بين الأحمر القاتم والأخضر الرمادى . وهكذا قل عن لون بشرته ، غير متمايز ، بين الأصفر والأزرق . وله عينان جاحظتان ، وفم غليظ الشفتين ، لا استقامة فى خطه . وسارتر فى ملبسه مهمل قذر ، وكان فيما مضى أشد قذارة فى مظهره وأكثر إهمالا لملبسه . ولذا لم تغرم به الفتيات ، بل كن ينفرن منه ويهجرن مجلسه . وكان هذا مرًّا شديد المرارة على سارتر . ولا شك أن هذا يفسر إلى حد معين مكانة المسألة الجنسية من مؤلفاته .

فى عام ١٩٢٤ نجح سارتر فى مسابقة دخول مدرسة المعلمين العليا بباريس وهى من أصعب المسابقات . ولما تقدم لمسابقة الأجريجاسيون أخفق ، فأعاد الكرة ونجح فى سنة ١٩٢٩ أو فى سنة ١٩٣١ ، أعنى أنه يكون رسب ثلاث دفعات أو خمس دفعات . ولا شك فى أنه ليس لهذا الإخفاق أدنى أهمية فى تكوين فكر سارتر وتنمية شخصيته الثقافية ، ولكنه بدون شك ثبَّت فى ذهن سارتر فكرة أن الجامعيين عاجزون عن تقدير الموهبة الفلسفية الحقة ، وعاجزون عن الحكم على النبوغ الأدبى أو الفكرى .

وعين سارتر أستاذا فى مدرسة روان ثم نقل إلى الهافر . ويحكى أنه كان يجلس مع طلبته فى قاعة الدرس ومعظمهم لم يتجاوز السابعة عشرة ، ويوزع عليهم الدخان والسجاير ويدخنون جميعاً وهو يلقى عليهم درساً فلسفيًّا . وأحب الطلبة سارتر وأقبلوا على درسه ، لا للتدخين فحسب بل للاستماع له وللمناقشة معه . وكان ينتقل بهم من الدروس المرسومة بالبرنامج إلى موضوعات خارجة عنه من أحاديث أدبية وسياسية ، ومن هــذه دون شك إلى أحاديث خاصة شخصية . وكان سارتر يحب طلبته ويخلص لهم ويرعاهم حين يذهبون إلى الجامعة ، فيعين بعضهم فى اعداد شهاداته ويكتب لبعضهم الآخر بحوثه . أما هو فصمم ألا يكتب للدكتوراه ، وألا يعمل شيئا للارتقاء إلى التدريس الجامعى ، بل عول على أن يبقى طول حياته أو طول مدة تدريسه على الأقل فى المدارس الثانوية .

ولا شك أن حياته فى الهافر منذ سنة ١٩٣٥ كانت قاسية عليه ، شديدة الوطأة ، وهى التى أملت عليه كتاب « الغثيان » . ويحوى هذا الـكتاب فيما يحويه وصفاً رائعاً للهافر ، سادسة مدن فرنسا ، وصفاً لأهلها وعاداتهم وتقاليدهم . يصف سارتر فيه لون المنازل ولون الماء ولون السماء ، وتـكَـيُّـفَ الناس بهذه الألوان ، وأثر هؤلاء فى هــذه المدينة ، سادسة مدن فرنسا وأبعثها للسآمة والضجر . و صف سارتر يدور على أشياء لا تحتملها النفس ، وصفٌ تضيق به النفس كما كا نفس سارتر تضيق بالأشياء وبالمدينة ، وصفٌ يجعل شعورنا بالحياة مرًّا ، كما كانت حياة سارتر بالهافر مُرّة أشد المرارة .

شرع سارتر يكتب وهو فى الهافر ، ولـكنه لم يبدأ برواية « الغثيان » بل كان أول كتاب له فى سنة ١٩٣٥ « الخيال » . والـكتاب فلسفى فى عنوانه وفى مضمونه ، يدرس طبيعة الخيال والصورة الخيالية ، ويعالج النظريات الفلسفية التى تناولت فعل الخيال والصورة الخيالية ، يفسرها ويفسر منزلتهما من حياة النفس ومن المعرفة . وإن ابتداء سارتر بالتأليف الفلسفى ليعنى شيئاً كثيراً ، يعنى أننا يجب أن نعتبر سارتر فى المبدأ فيلسوفا ليس غير . ومضمون الـكتاب وطريقة العرض فيه والمناقشة يدلان على أن سارتر فيلسوف من الطبقة الأولى ، له صبر حتى مع من لا يقر رأيهم من الفلاسفة ، وله قوة على النقد والهدم ، وله عمق فى التحليل لم يبلغه أى فيلسوف معاصر .

ودراسة سارتر للخيال مناقشة أكثر منها عرضاً، وهى تحليلاً نقديًا أكثر منها وصفاً موضوعيًا. وخلاصة الكتاب أن سارتر يرفض فيه جميع النظريات السابقة الخيال، وأنه يتجه فى نهايته إلى موقف ظن أنه يحوى الحقيقة عن الخيال، فيفحص عن هذا الموقف فيجده غير مقنع. ويقف كتاب سارتر عند هذه الملاحظة، ويترك القارئ يبحث عن موقف نهائى دون أن يهتدى إليه.

لِمَ هذه المناقشة؟ ولِمَ عرض سارتر لهذه المشكلة؟ وما العلاقة بين هذه المناقشة الدقيقة وما سيصدر عن سارتر فيما بعد من المؤلفات الأدبية الرائعة؟ هل نجد هنا ما يعدّ مؤلفاته، ما يعد ثورته الفكرية؟ لا يمكن أن نجيب على هذه الأسئلة ما لم نعين بالضبط مضمون الكتاب، حتى ولو كان فى هذا التعيين ما يبعدنا عن ميدان الأدب والفن وما يقيدنا بشروط فلسفية دقيقة.

لما درس الفلاسفة المحدثون طبيعة الخيال، وجهوا نظرهم إلى الصورة الخيالية ولم يعنوا بفعل الخيال فى ذاته. واعتقدوا أن الصورة الخيالية، صورة هذا المثلث أو تلك الدائرة مثلا. الصورة التى لدىّ الآن عن شخص معين، لا تختلف عن الإحساس بهذا المثلث أو بهذه الدائرة أو بهذا الشخص. وكما أن الإحساس والادراك الحسى أبعد الأشياء عن العقل والادراك العقلى، فكذلك الصورة الخيالية. وكما أن الاحساس والادراك الحسى يعوقان النفس عن التفكير الصحيح، فكذلك تعوق صور الخيال أفعال التفكير. ونجد عند ديكارت نصوصا يكاد يقرر فيها أن الخيال جسمى، وأن الصورة الخيالية تقوم فى المخ او فى ركن من أركان المخ. ونجد عنده أن الانسان إن تخيل فلأنه يوجه انتباهه إلى حسمه، ولأنه متحد بجسمه. ثم نجد عند اسبينوزا أن الخيال يقابل تأثر جسمنا بالأجسام المجاورة ويجعل النفس لا تفكر فى الأشياء إلا عن طريق هذا التأثر. والنفس وهى تحت سلطة الخيال لا تفكر فى الأشياء كما هى فى ذاتها، ولا فى علاقاتها الموضوعية، بل تفكر فيها من جهة الجسم المتحد بها، ومن جهة علاقات الأجسام بهذا الجسم. وما دامت النفس تحت سلطة الخيال، فهى إذن عاجزة عن معرفة الأشياء فى ذاتها وفى علاقاتها.

يسائل سارتر : كيف أن نفساً طبيعتها الفعل تحمل فى ذاتها ما يناقض الفعل ؟ كيف يمكن أن تحمل النفس شيئاً مثل الصورة الخيالية التى هى جسم أو شبه جسم ؟ أو ليس هذا تناقضاً صريحاً ؟ واحد إذن من أمرين : إما أن ننكر وجود الخيال جملة ، وفى هذا الإنكار ما يخالف الواقع ، أو أن نقرر وجود الخيال بحيث لا يكون فى تقريرنا هذا ما يعارض طبيعة النفس المفكرة الفعالة . ولكن كيف يصح هذا والصورة الخيالية تقوم فى الذهن أو فى المخ — إذا أردت — كما يقوم المثلث أمام عينى أو كما يظهر هذا الشخص الآن أمامى ؟

قد حاول برجسون فى أواخر القرن الماضى أن يخفف من هذه الصعوبات عند ما اعتبر الأجسام كلها صوراً أو مركبات صور ، وعند ما قرر أن المادة المطلقة ، تلك التى تعارض طبيعة الروح المطلقة ، لا وجود لها إلا فى أذهان الفلاسفة ، وأن طبيعة الأشياء ليست روحاً بالمعنى الدقيق ، مثل روحى أنا أو مثل روح فلان ، وليست جسما جامداً بلا حراك ، بل إنها بين الاثنين عبارة عن مجموعة صور ، إن تركزت واتحدت فيما بينها اقتربت مما نسميه روحاً وفكراً ، وإن تشعبت وتبددت اقتربت مما نسميه مادة وجسما . ومن ثمّ ليس هناك فارق جوهرى بين الصورة الخيالية والروح من ناحية ، وبين هذه الصورة والأجسام من ناحية أخرى . ثم ليس هناك إذن أى إشكال فى قبول التصور الخيالى فى النفس ما دامت النفس فى أصلها جملة صور وكانت هذه الصور فى أصلها شيئاً غير المادة البحتة . ولكن ثمة نتيجة أخرى أشد خطورة : ليس هناك اختلاف جوهرى بين الإدراك الحسى والتصور الخيالى إن كان الإدراك الحسى حضور صورة أو صور لمجموعة صور أخرى ، والتصور الخيالى مثول صورة أخرى لنفس هذه المجموعة من الصور . ويقوم الفرق الوحيد بينهما فى أن حضور الصور للنفس فى الإدراك الحسى له منزلة حيوية عملية ، ومتعلق أشد التعلق بمطالب النفس الآنية ، فى حين لا يخضع حضور الصور للنفس فى الخيال لمثل هذه الشروط ، سواء تركزت الصور وتركبت فيما بينها على نحو جديد أو تحررت كلية من مطالب الحياة المشتركة الاجتماعية . ومن هنا كان الخيال ابتكاراً ، ومن هنا تكونت الأحلام .

يتعجب سارتر من موقف برجسون ومما صادفه من النجاح عند الفلاسفة

وعلماء النفس . كيف يقنع الفيلسوف بموقف ينتهى به إلى إنكار ذات الحقيقة التى يعتمد عليها فى نقده وفى حكمه على الأشياء وتقديره لها ، أقصد حقيقة الفكر الخالص ، حقيقة الذهن الفعال ؟ إذ سواء قربت النفس من الجسم كما يفعل الماديون أو الجسم من النفس كما يفعل برجسون ، فأنت تهمل دون شك مزية النفس على الجسم واستقلالها عنه . وسواء اعتبرتَ الصورة الخيالية نسخة من الإحساس يعوق الذهن فى تفكيره كما يفعل ديكارت أو رجعتَ هذا التفكير إلى جملة صور كما يفعل برجسون ، فأنت تعترف بأن الخيال لن يتميز عن الإحساس ولن يتعدى حدود الإحساس والإدراك الحسى .

ولكن ثمة نتيجة مهمة أخرى لموقف برجسون ، كانت متضمنة فى مواقف ديكارت وأسپينوزا : إن كان التقريب بين الإحساس والصورة الخيالية مشروعاً والتعادل بينهما جائزاً ، لم يعد هناك أى داع للتمييز بين الموضوعات الخارجية وصور الخيال ، أو — كما يقول ديكارت — بين اليقظة والأحلام ، بين إدراكى الآن فى الوقت الحاضر لهذه المائدة كما هى أمامى أو لهذا الرداء الذى ألبسه ، وبين صورتى المائدة والرداء فى ذهنى حين أكون نائماً أحلم .

ولكن ألسنا مخطئين حتى فى استعمال كلمة « صورة » ؟ ألسنا نعرِّض أنفسنا بهذا الاستعمال للوقوع فى الخلط بين إدراك الموضوع الخارجى وتصوره الخيالى ، للخلط بين الجسم الماثل أمامنا ، وحضور هذا الجسم عندما نحلم به ؟ زد على ذلك أن من يتكلم عن « صورة » فهو يقصد « نسخة » من شىء خارجى ، ومن يتكلم عن الصور التى فى الذهن عن الموضوعات الخارجية ، فكأنه يحمل الذهن نسخاً للموضوعات الخارجية ، كما تحمل العدسة الفوتوغرافية صور الأشخاص والأجسام . ولكن إذا كان الفكر فكراً حقيقيًّا ، وإذا كان الشعور شعوراً حقيقيا ، فلا محل فيهما لا للصور ولا للنسخ ، وإذا كان الفكر فعالا ، فأحواله دائماً أفعال مهما اختلفت شروطها وموضوعاتها . لنترك إذن لفظة « الصورة » جانباً ولنتكلم فحسب عن الخيال وموضوعاته ، كما نتكلم عن الإدراك الحسى وموضوعاته .

ما الإدراك الحسى ؟ وما الخيال ؟ أقل ما يمكن أن يقال الآن ، هو أن الإدراك الحسى تمثلٌ للأشياء فى حضورها الحى ، أو كما يقول هورسل « بلحمها وعظمها » . والخيال تمثلٌ لنفس الأشياء ، ولكن فى غيبتها بالذات . وإذا

لم يقم فارق بين الادراك والخيال فهذا معناه أن لا فارق بين الأجسام الحاضرة والأجسام الغائبة ، أى إلى حد ما بين وجود الأجسام وعدمها . ولكن الفلسفة تبدأ بتمييز أساسى بين اتجاهين للنفس ، أحدهما يرمى إلى تقرير وجود الأجسام ، إلى تقرير حضورها فعليًّا لا مراء فيه ، والآخر يرمى إلى التفكير فى الأجسام فى غيابها غياباً حقيقيًّا .

يلتقى سارتر فى هذه اللحظة مع المدرسة الألمانية المعاصرة التى يتزعمها هورسل ، هذه المدرسة التى تطلق على نفسها اسماً غريباً هو « الفنومنولوجيا » . والاسم يعنى حرفياً « دراسة الظواهر » . وإنما يقصد به فى نظر هذه المدرسة ، موقفاً يظهر الحقائق للعيان ، فلسفة تصف الشعور وأفعاله وموضوعاته فى خصائصها الجوهرية .

اعترف سارتر بدينه للفلسفة الألمانية لما قامت به من التمييزات الهامة ، وخاصة عند ما وصفت فعل الإدراك الحسى فى اتجاهه نحو موضوعاته ، عند ما وصفت الكيفية التى يتجه بها الإدراك نحو موضوعاته ، والنحوَ الذى تمثل به هذه الموضوعات للذهن فى الإدراك . وعمِلَ سارتر على فهم موقف هذه الفلسفة من الخيال وموضوعاته ، ولكنه لم يجد مفرًّا من الاعتراف بأن هذه الفلسفة ، وهورسل خاصة ، قد عجزا عن حل مشكلة الخيال .

يريد سارتر أن يحدد طبيعة الخيال ، والخيال غير منفصل فى الوجود عن موضوعاته . يجب عليه إذن أن يحدد أيضاً طبيعة هذه الموضوعات وكيفية مثولها للذهن فى الخيال : إذ لا يكفى إن نقول أن الخيال تصور لموضوعات غائبة الآن عنا ، ولا يكفى أن نقول إن موضوع الخيال لا يمثل للذهن « بلحمه وعظمه » حسب تعبير هورسل ، كما هو الحال للموضوع الحسى . بل إن مشكلة المشاكل هى هذه : كيف يتأتى لما كان موضوعاً حسياً ، أى موضوعاً يمثل للإنسان « بلحمه وعظمه » ، أن يمثل للإنسان وهو غائب عنه بالذات ؟ وكيف يتأتى للإنسان أن يتصور هذه الموضوعات الحسية ، وهى منعزلة عن شروط الموضوعات الحسية بالذات ؟ وبتعبير آخر ، كيف يصح لما كان موضوعاً حسيًّا أن يحضر للذهن دون أن يكون حاضراً للذهن ؟ وكيف يصح لكائن مثل الإنسان يقوم بالادراك الحسى أن يقوم بفعل يعارضه تمام المعارضة ؟

هذا سؤال أو هذه أسئلة سارتر فى الكتاب الذى أصدره سنة ١٩٣٥ . والسؤال له خطره لأن الإجابة عنه ستحملنا دون شك على أن نقرر قيام فعل للذهن متصل أشد الاتصال بالإدراك الحسى مع أنه متميز عنه كل التميز . وستدعونا الإجابة عن هذا السؤال إلى أن نقرر موضوعات هى أقرب الأشياء لموضوعات الحس والعالم الخارجى ، ولكنها مع ذلك أبعد الأشياء عنها ، موضوعات موجودة لأنها حاضرة للذهن المفكر ، وغير موجودة الآن بالفعل . والسؤال مهم لأن الإجابة عنه أو محاولة الإجابة تتصل عنه أشد الاتصال بمسألة الفن وموضوعاته : فإن كانت قوةُ الفنان ، قصصيًّا كان أو مثالاً أو مصوراً ، تقوم فى خياله ، فالفنان يتصور إذن موضوعات غير موجودة ، أو هو يتصور عدماً ، أو ما هو أسوأ من ذلك ، يعطى للعدم وجوداً . وسيؤدى بنا البحث فى هذه المسائل إلى الإجابة عن سؤال خطير : إذا كانت الموضوعات الخارجية وعلامتها الوجود تَمْثُلُ للذهن أحيانا كأنها غير موجودة ، فهل يعنى هذا أن الوجود يتخلله العدم ، أو أن الوجود يحمل فى ذاته ما يعدمه ؟

نجيب بلدى